حكايةُ رقابةٍ مزدوجةٍ
في الدار الخاصّة والمؤسّسة الثقافيّة

بهيجة مصري أدلبي

دخلتُ التجربةَ الروائيّة لأول مرة من باب الشعر. ولقد مَثّلَ لي الشعرُ على الدوام لغةَ عالمٍ مخبوءٍ بطبقاتٍ لامتناهيةٍ من الأسرار. وحين بدأتْ تجربتي الأولى في التحوّل من الشعر المتركّز على الأنا التعبيريّة والرؤيويّة، إلى العالم السرديّ المتركّز على تمثيل الواقع بأكثر من صوت، وجدتُ أنّ الرواية ليست جنسًا أدبيّاً مغلقًا وإنّما هي جنس مفتوح يتّسع لكلّ شيء. ومن هنا انخرطتُ في التجربة من دون اكتراثٍ جدّيٍّ بالتعاريف والحدود. ولقد أطلقتُ في روايتي الأولى **رحلة في الزمن العموديّ** شهيَّةَ السرد الشعريّ الكيانيّ، الذي يشكّل عنوانُ الرواية تكثيفًا لهويّته.

غير أنّ تجربة الروائيّيْن الكبيريْن عبد الرحمن منيف وجبرا إبراهيم جبرا، في روايتهما المشتركة **عالم بلاخرائط**، أَوْحتْ لي بفكرة متابعة هذا المنحى المشترك في الكتابة السرديّة الروائيّة. وما إنِ التقيتُ زميلي الشاعر عامر الدبك ـ وكانت لنا عدةُ تجارب وإصدارات في مجال القصيدة المشتركة في سورية ـ حتى استوت الفكرةُ، وباتت أخيرًا قيد العمل، وأَثْمر هذا التلاقي عن إنجازنا المشترك لرواية **ألواح من ذاكرة النسيان**. ولعلّ العنوان يوحي بشكلٍ مسبّق بتكويننا الشعريّ الأصليّ، الذي نَشْترك فيه أنا وعامر في التركيز على التجربة الميتافيزيقية للكائن لكنْ من دون انفصال عن الواقع ـ فنحن في النهاية من أبناء التيار القوميّ الديموقراطيّ من الناحية الفكريّة والسياسيّة. وكان ذلك متعمَّدًا، إذ كتبنا الروايةَ في ظروف الهجوم الأنكلو ـ أميركيّ الغاشم على العراق في عام ١٩٩٧، وأهديناها على لسان بطليْها الأساسيَّيْن «الدكتور سامر» و«الدكتورة سورين» ـ اللذيْن يعملان (في الرواية طبعًا) منقِّبيْن أثريّيْن عن مدينة أوروك في العراق ـ إلى «جلجامش وأنكيدو، من أجل أوروك العظيمة، إلى العراق الأرض والشعب والتاريخ.» ذلك أنّ مغامرة المنقّبيْن تقوم على فكّ طلاسم التربة العراقيّة المتجذِّرة في الأرض والتاريخ، والصامدةِ أمام الغزاة، في ضوء استيحاءٍ لأسطورة غلغامش، يعيد امتصاصَها وتأويلَها وإسقاطَها من جديدٍ في شكل «لعبة فنية» من النوع الدلاليّ.

مُنعت روايتنا بسبب «ما فيها من قيم فكريّة هجينة»

من الناحية الشكليّة كانت الروايةُ المشتركةُ هذه ـ وهي في حدودِ عِلْمنا أولُ رواية مشتركة في التجربة السرديّة السوريّة ـ تتعامل مع الجنس الروائيّ بشكلٍ ديناميكيٍّ يَجْعله قابلاً لاستيعاب تكويننا الشعريّ المشترك. ومن هنا قامت على عدة ألعابٍ تَمْزج ما بين الشعر، والسرد التمثيليّ والعموديّ، والسيرة الذاتيّة،

والمذكّرات الشخصيّة والتاريخيّة، والاعتناءِ بالطاقة الرمزيّة للغة، والبناءِ البطوليّ الملحميّ للشخصيّة، على أساس معمارٍ فسيفسائيٍّ متداخلٍ ومتشابك.

لكنّ مشكلة روايتنا مع الرقابة بدأتْ حين تقدّمنا بها إلى مسابقة دار الفكر بدمشق حول أحسن روايةٍ مقدَّمةٍ لمسابقتها لعام ١٩٩٨. ولقد تمت إحالةُ الرواية عن طريق الدار إلى الجهة الرقابيّة المختصّة في وزارة الإعلام، بتاريخ ١٩٩٨/١٢/٩، والتي تحيل عادةً الأعمالَ الأدبيَّةَ على مديريّة المطبوعات والنشر في اتّحاد الكتّاب العرب. ونامت الرواية لدى القرّاء المراقبين حوالى ستة أشهر، لتَخْرج أخيرًا بتاريخ ١٩٩٩/٦/٣٠ بقرار عدم الموافقة على الطباعة. ومن تقاليد لجنة الرقابة في اتّحاد الكتاب العرب إطلاعُ الكاتب على تقرير القارئ مُغْفلاً من الاسم، لكنْ من دون إعطائه نسخةً عن التقرير. وحين يحصل الكاتبُ على التقرير فإنه يحصل عليه بـ «شطارته» لا رسميّاً. وفوجئنا بسيل ملاحظاتٍ لا تنتهي تتركّز، كما أذكر، حول رؤية العمل التاريخيّة، وانتهاكِه لقيم الأمة، وما شابه ذلك، مع أنّه عملٌ تخييليٌّ أولاً وأخيرًا، ويُعدّ موضوعُه موضوعًا «قوميّاً» لا يتعارض وأهدافَ الاتحاد.

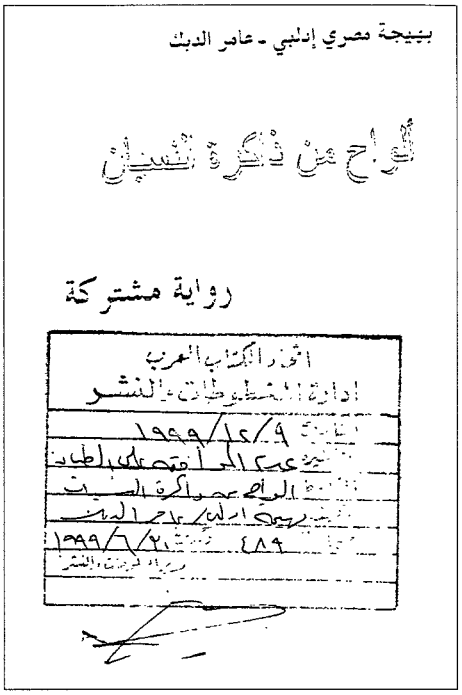
بهيجة مصري إدلبي ـ عامر الديك

ألواح من ذكرة نسيان

رواية مشتركة

اتحاد الكتاب العرب
إدارة المطبوعات والنشر
1999/12/9
1999/6/30
489

ختم عدم الموافقة

تَرْتبط مبرراتُ المنع، التي علينا ألا نَنْسى أن مَنْ يقوم بها كاتبٌ أو ناقدٌ معتمَد، بمزاج القارئ وتقديراته وأهوائه، أكثرَ ممّا ترتبط بمسائل رقابيّة منصوص عليها. ومن المؤسف أنّ نسبة القراء المحافظين جماليّاً وفكريّاً في اتّحاد الكتّاب العرب كبيرة. ولم تُفْلح كلُّ محاولاتنا الجانبيّة في تعديل قرار منع كتابنا، وهو قرارٌ دُوِّن في خاتم المديريّة. وكان على الرواية أن تمضي في رحلةٍ متعبة ومنهكة مع تقارير القرّاء، سواء في مديريّة المطبوعات أو في الدار نفسها. ولقد ورد في أحد التقارير المنعيّة حول الرواية أنّها عمل جيِّد فنيّاً، إلاّ أنّ ما ينتقص من قَدْرها «ما فيها من قيم فكريّة هجينة تَخْتلف مع التصوُّر الإسلاميّ،» وأنّها مبنيّة «في الأصل على أسطورةٍ وثنيّةٍ تقوم أولاً على فكرة تعدد الآلهة،» وأنّ الكاتبَيْن لم يتدخّلا في «تصحيح بعض هذه القيم الفاسدة.» ويَحْصي التقريرُ أكبرَ عددٍ ممكنٍ وَجَدَه من «الأفكار والعبارات الوثنيّة،» ليَخْلص إلى أنّ «الرواية جيّدة من ناحية الفنّ القصصيّ... لكنّ خطها الفكريّ ـ كما بيّنتُ ـ لا يمثّل أصالةَ الأمة، وقيمها الثابتةَ المعتبرَةَ، ويَقْدح من قيمتها الجماليّة ما بيّنته من أمور.»

ولكنْ كيف تكون الروايةُ «جيِّدةً من ناحية الفن القصصيّ» ومقدوحةً جماليّاً في الوقت نفسه؟ من الواضح أنّ هذا رقابة، لا قراءة. وهكذا التقى الرقيبُ المحافظ في اتّحاد الكتاب مع الرقيب المحافظ في الدار تمامًا، وهذا هو الأدْعن. واعتُبر عدمُ موافقة اتّحاد الكتاب على الطبع تأكيدًا لصحة القرار بعدم الطباعة. ولقد عكستْ كلمةُ لجنة الجائزة بعضَ ذلك، حين أشارت في مقدّمة الطبعة إلى أنّ الرواية كانت موضعَ «أخذ وردّ تضاربتْ من خلالها الآراءُ بين قادحٍ ومادح، ومرجِّحٍ ومهاجِم، حتى استقرَّ الرأي على فوزها بالغالبيّة الدنيا.» ولم يكن اعتراضُ القادِحين، كما تبيّن الكلمةُ، مبنيّاً على اعتباراتٍ فنيّةٍ بل على اعتباراتٍ فكريّةٍ محافظة. وخلاصةُ الأمر أنّنا فشلنا في تعديل قرار مديريّة المطبوعات في اتّحاد الكتاب بعدم النشر، الأمر الذي يَعْني أنّ الرواية لن تُطبع وتوزَّع في سوريّة، مع أنّها مقدَّمة إلى جائزة سوريّة.

إنّ ملابسات منع كتابنا لا تَسْتند إلى أيّ معيارٍ فنيٍّ أو مبرِّرٍ مُقْنعٍ سوى العقل المتحجّر المعادي لقيم الثقافة والإبداع. لكنّ تجربة روايتنا المشتركة ـ أنا وعامر ـ لن تَجْعل هذه المكابدات، التي استغرقتْ حوالى ثلاثة أعوام ونيّف، من ألواح النسيان، بل ستبقينا في دائرة الإبداع الذي لا يعترف سوى بنفسه.

حلب

بهيجة مصري ادلبي

كاتبة وأديبة سورية. ومن أبرز مجموعاتها الشعريّة: **في ساعة متأخرة من الحلم. وأبحث عنك فأجدني، وعلى عتبات قلبك أصلي، والسمراء في برج الحداد**. ولها رواية بعنوان **رحلة في الزمن العمودي**، وعمل اخر مشترك مع عامر الديك هو موضوع هذه الشهادة